الباب الخامس والثلاثون

أبـــلار

١٠٧٩ – ١١٤٢

الفصل الأول

الفلسفة القدسية

ليسمح لنا القارئ بأن نخص أبلار بباب كامل ، وليس حديثنا عنه فى هذا الباب مقصوراً عليه بوصفه فيلسوفاً أو من أصحاب الفضل فى إنشاء جامعة باريس أو شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، بل سنتحدث عنه بوصفه هو وهلواز مثالين لأخلاق عصرهما وآدابه ، وأرقى وأعظم ما يخلب اللب ويبهر العقل فى ذلك العصر . كان مولد أبلا رفى قرية له باليه Pallet القريبة من نانت Nantes إحدى مدن بريطانيا . وكان أبوه المعروف لنا باسم بيرنجر Bérenger ولا شىء غير هذا ، صاحب ضيعة متواضعة ، وكان فى مقدوره أن يهيئ لأولاده الثلاثة ولابنته تعليما حراً . وكان بيير Pierre (ولسنا نعرف أصل لقبه أبلار) أكبر أولئك الأبناء وكان فى مقدوره أن يطالب بحق الابن الأكبر فى ميراث أبيه ؛ ولكنه كان مولعاً بالدرس والتفكير إلى حد جعله بعد أن كبر ينزل لأخويه عن حقه ، وعن نصيبه فى أملاك الأسرة ، وشرع يطلب الفلسفة ، ويلقى بنفسه فى معركتها أينما حمى وطيسها ، أو أينما وجد معلماً ذائع الصيت يُدَرِّسها : وكان من أعظم ما أثر فى حياته المستقبلة أن كان من أول

obeikandi.com

أساتذته چان روسلان Jean Roscelin (حوالى ١٠٥٠ — حوالى ١١٢٠) ، وهو رجل متمرد انصب عليه كما انصب على أبلار من بعده سخط الكنيسة وحرمانه من الدين .

وكان منشأ الجدل الذى أثاره روسلان مسألة من مسائل المنطق الجاف الموغل فى الجفاف ، والتى تبدو أبعد المسائل كلها عن الأذى ، وهى الوجود الموضوعى « للكليات » . وكان « الكلى » فى الفلسفة اليونانية وفلسفة العصور الوسطى هو الفكرة العامة التى تدل على صنف من الأشياء (كالكتاب ، والحجر ، والكوكب ، والرجل ، والنوع الإنسانى ، والشعب الفرنسى ، والكنيسة الكاثوليكية) ؛ أو الأعمال (كالقسوة ، والعدالة) ؛ أو الصفات (كالجمال والصدق) . وكان أفلاطون ، وهو العليم بسرعة زوال الكائنات والأشياء الفردية ، قد قال بأن الكلى أكثر بقاء ، وأنه لذلك أكثر حقيقة ، من أى فرد من الصنف الذى يصفه : فالجمال أكثر حقيقة من فرينى Phryne ، والعدالة أكثر حقيقة من أرستيديز ، والرجل أكثر حقيقة من سقراط ؛ وهذا هو الذى كانت العصور الوسطى تعبر عنه « بالواقعية » . وخالف أرسطو هذا الرأى وقال إن « الكلى » ليس إلا فكرة يكونها العقل لتمثل صنفاً من الأشياء المتماثلة ؛ فهو يرى أن الصنف نفسه لا يوجد إلا فى صورة أعضائه التى يتركب هو منها . والناس فى وقتنا هذا يتجادلون : هل يوجد « عقل جماعة » منفصلا عن رغبات الأفراد الذين تتكون منهم هذه الجماعة وأفكارهم ومشاعرهم ؟ فأما هيوم فقد قال إن « العقل » الفردى نفسه ليس إلا اسماً مجرداً لسلسلة الأحاسيس والأفكار ، والإرادات التى فى كائن حى ولمجموعها . ولم يكن اليونان يهتمون اهتماماً كبيراً بهذه المسألة ، واكتفى فيلسوف من آخر الفلاسفة الوثنيين — هو برفيرى Porphyry (حوالى ٢٣٢ — حوالى ٣٠٤) الذى أقام فى الشام وفى رومة — بصياغتها دون أن يعرض حلا لها . لكن العصور الوسطى كانت تراها

مسألة حيوية . فقد كانت الكنيسة تزعم أنها موجود روحى بالإضافة إلى مجموع الأفراد المنضمين إليها ؛ وكانت تشعر بأن « للكل » صفات وقوى غير صفات أجزائه وقواها ؛ ولم يكن فى مقدورها أن تعترف بأنها فكرة مجردة ، وأن الأفكار والعلاقات التى لا نهاية لها والتى يُوحى بها لفظ « الكنيسة » ليست إلا أفكاراً ومشاعر فى أعضائها المكونين لها ، بل إنها هى « عروس المسيح » الحية . وشر من هذا قولها : إذا كان الأشخاص ، والأشياء ، والأعمال ، والأفكار المفردة ، هى وحدها الموجودة ، فماذا يكون مصير الثالوث ؟ هل تكون وحدة الأقانيم الثلاثة فكرة مجردة لا أكثر ، أو هل هى ثلاثة آلهة منفصلة بعضها عن بعض ؟ إن علينا أن نضع أنفسنا فى الجو اللاهوتى المحيط بروسلان إذا شئنا أن نفهم ما حل به .

ولسنا نعرف آراءه إلا من أقوال معارضيه ، فهم يقولون إنه يرى أن الكليات أو الأفكار العامة ليست إلا ألفاظا (voces) ، أى هواء الصوت (flatus vocis) ؛ فأما الأشياء المفردة فموجودة ، والأفراد المفرودون موجودون ، وأما كل ما عدا هذا فهو أسماء (noméina) . وليس للأجناس ، والأنواع ، والصفات ، وجود مستقل ؛ فالإنسان لا وجود له ، بل الذين يوجدون هم الرجال ، ولا وجود للونَ إلا فى الأشياء الملونة . وما من شك فى أن الكنيسة كانت تترك روسلان وشأنه لو لم يطبق هذه « الاسمية » على الثالوث . فقد نُقل عنه أنه قال إن الله لفظ أطلق على أقانيم الثالوث الثلاثة ، كما أطلق لفظ الإنسان على كثيرين من الرجال ولكن كل ما له وجود حق هو الأقانيم الثلاثة — أى ثلاثة آلهة فى واقع الأمر . وفى هذا اعتراف بالشرك الذى يتهم به الإسلام المسيحية اتهاماً ضمنيا خمس مرات فى اليوم من فوق ألف مأذنة(*) . ولم تكن الكنيسة ترضى

(*) يقصد حين يقول المؤذن « لا إله إلا الله » ولكننا لا نرى فى هذا اتهاماً للمسيحية بل تقريرا لركن من أركان الإسلام . (المترجم)

بصدور هذه التعاليم من شخص هو قس من قساوسة كنيسة كمپيينى Compiègne . ودعى روسلان للمثول بين يدى مجمع دينى مقدس فى سواسون (١٠٩٢) وخيير بين الرجوع عن أقواله والحرمان ، فاختار الرجوع ، وفر إلى إنجلترا وهاجم فيها عادة التسرى عند رجال الدين ؛ ثم عاد إلى فرنسا ودرس فى تور ولوش Loche . ويبدو أن هذه البلدة هى التى جلس فيها أبلار عند قدميه وهو نافد الصبر متململ[٢] . ورفض أبلار فكرة « الاسمية » ولكنه حرم من الدين مرتين لشكه فى الثالوث . وخليق بالملاحظة أيضا أن القرن الثانى عشر كان يسمى الواقعية « العقيدة القديمة » وأنه كان يسمى معارضيها الحديثين moderni[٣]

ودافع أنسلم (١٠٣٣ — ١١٠٩) عن الكنيسة دفاعاً مجيداً فى عدة مؤلفات يبدو أنها حركت عواطف أبلار ، وكان لها فيه أثر عميق ، وإن لم يكن هذا الأثر إلا المعارضة . وكان أنسلم من أبناء أسرة من أشراف إيطاليا ؛ وعين رئيساً لدير بلك Bec فى نورمندية عام ١٠٧٨ . وأضحى دير بلك فى أثناء حكمه ، كما أضحى فى أيام لافران La Faanc مدرسة من أكبر المدارس التعليمية فى الغرب . ولعل أنسلم كان ، كما وصفه زميله الراهب إيدمر Eadmer فى ترجمة له تنم عن تعلقه به ، زاهداً ظريفاً لا يرغب فى شىء سوى التفكير والصلاة ، خرج من صومعته كارهاً ليحكم الدير ومدرسته . وكان الشك أبعد الأشياء عن رجل مثله ، بل كان الإيمان عنده هو الحياة ، و « يجب أن يسبق الإيمان ؛ وكيف يستطيع عقل محدود أن يأتى عليه يوم يفهم فيه الله ؟ » وفى هذا يقول كما يقول أوغسطين : « لست أسعى للفهم لكى أعتقد ، بل إنى أعتقد لكى أفهم » ، ولكن تلاميذه طلبوا إليه حججاً يجادلون بها الكفار ؛ وكان هو نفسه يرى أن « من الإهمال ، وقد تثبتنا فى ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا »[٤] ؛ وكان

شعاره هو الإيمان يطلب الفهم ، وألف سلسلة من الكتب العظيمة الأثر بدأ بها الفلسفة المدرسية حين حاول أن يدافع عن الدين المسيحى دفاعاً قائماً على العقل .

ودافع فى رسالة صغيرة تدعى « حديث للنفس » عن الوجود الموضوعى للكليات فقال : « إن آراءنا فى الخير ، والعدالة والحق ، نسبية ، ولا معنى لها إلا إذا قورنت بخير مطلق أو عدالة مطلقة ، أو حق مطلق ؛ وإذا لم يوجد هذا الحق المطلق فلن يكون لنا مقياس أكيد للحكم ، وبذلك تصبح علومنا وأخلاقنا على السواء جوفاء عديمة الأساس . والله — وهو الخير المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق — هو هذا المطلق المنقذ ، وهو الغرض الذى لا بد منه فى حياتنا . وكأنما أراد أنسلم أن يذهب بهذه الواقعية إلى أبعد مدى فانتقل فى كتابه Proslogion (حوالى ١٠٧٤) إلى برهانه الشهير المستمد من فن ما وراء المادة الذى أراد أن يثبت به وجود الله فقال : الله أكمل كائن يستطيع العقل أن يتصوره ؛ ولكنه إذا لم يكن إلا فكرة فى رءوسنا ، فإن ذلك ينقصه عنصراً من عناصر الكمال — وهو الوجود : وإذن فالله ، وهو أكمل الكائنات ، موجود . وكتب راهب متواضع ، يدعى جونيلو Gaunilso ، ويرمز لاسمه بلفظ الأبله Insipio — إلى أنسلم احتجاجاً يقول فيه إننا لا نستطيع أن ننتقل هذا الانتقال السحرى من الإدراك إلى الوجود ، وإن حجة لا تقل عن الحجة السابقة فى قوتها يمكن أن تثبت وجود جزيرة تبلغ درجة الكمال ، وإن تومس أكوناس يتفق فى الرأى مع جونيلوه . ثم حاول أنسلم فى مقالة رائعة ولكنها غير مقنعة أسماها « ابن الله الإنسان » أن يجد أساساً معقولا للعقيدة المسيحية الأساسية القائلة بأن الله أصبح إنساناً ، ويسأل لم كان هذا التجسد ضرورياً ؟ لقد كانت هناك فكرة يؤيدها أمبروز ، والبابا ليو الأول وطائفة من آباء الكنيسة(٦) ، تقول إن آدم وحواء حين

أكلا الفاكهة المحرمة قد باعا نفسهما وباعا كل نسلهما إلى الشيطان ، وأن لا شيء يستطيع افتداء البشرية من الشيطان والجحيم إلا موت الله الذى أصبح إنساناً . وعرض أنسلم حجة أدق من هذه وأبلغ فقال : إن عصيان أبوينا الأولين كان ذنباً غير محدود لأنه ذنب فى حق كائن غير محدود ، وإنه قلب النظام الخلقى للعالم كله ؛ ولا شيء يمكن أن يوازن ويمحو ذلك الذنب غير المحدود إلا التكفير عنه تكفيراً غير محدود ؛ ولا يستطيع تقديم هذه الكفارة الغير المحدودة إلا كائن غير محدود ؛ ومن أجل هذا صار الإله إنسانا لكى يعيد إلى العالم توازنه الأخلاقى .

ونمت واقعية أنسلم وتطورت على يد تلميذ من تلاميذ روسلان يدعى وليم الشابوكسى William of Chapeaux (١٠٧٠ ؟ — ١١٢١) . فقد بدأ وليم فى عام ١١٠٣ يعلم الجدل فى مدرسة كتدرائية نتردام بباريس . وإذا جاز لنا أن نصدق أبلار — الذى كانت براعته الحربية تحول دون براعته التاريخية — قلنا إن وليم ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أفلاطون ، فكان أفلاطونيا أكثر من أفلاطون نفسه حين قال إن الكليات ليست حقائق موضوعية فحسب ، بل إن الفرد تحوير عارضى للحقيقة الجنسية ، ولا وجود له إلا باشتراكه فى الكلى ؛ وعلى هذا فالإنسانية هى الكائن الحقيقى ، الذى يدخل فى سقراط ، ويكسبه وجوده . وينقلون عن وليم أنه قال فضلا عن هذا إن الكلى بأجمعه حاضر فى كل فرد من صنفه ، فالإنسانية كلها حاضرة فى سقراط وفى الإسكندر .

وألقى أبلار عصا التسيار فى مدرسة وليم بعد كثير من التجوال العلمى (١١٠٣) ، وكان وقتئذ فى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره . وكان وسيم الخلق حسن القوام ، بهى الطلعة[٧] ، ذا جبهة عريضة تبعث فى النفس الروعة ؛ وكانت روحه المرحة تكسب طباعه وحديثه فتنة وحيوية . وكان يستطيع تأليف الأغانى وإنشادها ، وكانت فكاهته القوية تزلزل الضعاف فى قاعات الجدل . وكان شابا مرحاً طروباً ، عرف فى الوقت نفسه باريس والفلسفة .

obeikandl.com

وكانت عيوبه هى العيوب التى تستلزمها صفاته : فقد كان مغروراً ، مزهواً بنفسه ، وقحاً ، منطوياً على نفسه ، دفعه ابتهاجه بمواهبه التى كان يعرفها حق المعرفة إلى أن يطرح بتهور الشباب العقائد التعسفية والعواطف الرقيقة التى كانت سائدة فى عصره وبين أساتذته . وقد أسكرته « بهجة » الفلسفة « المحببة » إليه ؛ فهذا العاشق الذائع الصيت يحب الجدل أكثر مما يحب هلواز :

وقد سخر من واقعية أستاذه المسرفة ، وتحداه علناً أمام فرقته : يا عجباً الإنسانية كلها حاضرة فى سقراط ؟ إذن فحين تكون الإنسانية كلها حاضرة فى الإسكندر لا بد أن يكون سقراط (الذى تشمله الإنسانية كلها) حاضراً فى الإسكندر . ويخيل إلينا أن ما كان يقصده وليم هو أن جميع العناصر الجوهرية التى فى الإنسانية حاضرة فى كل كائن بشرى . على أننا لم تصل إلينا حجج وليم فى هذا النقاش ؛ ومهما كانت هذه الحجج فإن أبلار لم يأخذ بشىء منها . فقد عارض واقعية وليم واسمية روسلان بالفلسفة التى سميت فيما بعد بالفلسفة الإدراكية ؛ وهى تقول إن الصنف (الإنسان والحجر) ليس له وجود جسمى إلا فى أفراده التى يتكون منها (الرجال ، والحجارة) ؛ وإن الصفات (كالبياض ، والطيبة ، والحقيقة) لا وجود لها إلا فى الأجسام ، أو الأفعال ، أو الأفكار التى تصفها . ولكن الصنف والصفة ليسا مجرد اسمين ، بل هما مدركان تكونهما عقولنا من العناصر أو المظاهر التى نلاحظ وجودها مشتركة بين طائفــة من الأفراد ، أو الأجسام ، أو الآراء . وهذه العناصر المشتركة حقيقية ، وإن لم تظهر إلا فى الصور الفردية . وليست المدركات التى نفكر بها فى هذه العناصر المشتركة — الأفكار الجنسية أو الكلية التى نفكر بها فى الأصناف المكونة من أجسام متماثلة — ليست هذه المدركات « رياح الصوت » ، بل هى أكثر أدوات التفكير نفعا وأكثرها ضرورة ، وبغيرها لا يمكن أن يكون للعلم ولا للفلسفة وجود .

ويقولون إن أبلار بقى مع وليم « بعض الوقت » . ثم شرع هو نفسه يدرس فى ميلون Melun أولا ثم فى كوربى Corbeil بعدئذ ، وتبعد أولى البلدتين أربعين ميلا عن باريس أما الثانية فتبعد عنها خمسة وعشرين . وقد أخذ عليه بعضهم أنه أنشأ « حانوته » بعد تدريب جد قصير ، ولكن عدداً كبيراً من الطلاب هرع إليه ، لإعجابهم بسرعة بديهته وزلاقة لسانه . وكان وليم فى هذه الأثناء قد أصبح راهباً فى دير القديس فكتور حيث « طلب إليه » أن يستمر فى إلقاء محاضراته ؛ وعاد إليه أبلار تلميذاً بعد « مرض شديد » . ويبدو أنه كان على عظام فلسفة وليم لحم أكثر مما توحى به القراءة العاجلة لسيرة أبلار الموجزة التى كتبها بنفسه . ولكن سرعان ما تجددت مناقشاتهم القديمة ، وأرغم أبلار (كما يقول أبلار نفسه) وليم على أن يعدل فلسفته الواقعية ، وبدأت مكانة وليم فى الهبوط . وعرض الأستاذ الذى خلفه والذى عينه بنفسه فى نتردام أن يخلى مكانه لأبلار (١١٠٩ ؟) ، ولكن وليم لم يوافق على هذا العرض . وواصل أبلار محاضراته فى مليون ، ثم فوق جبل سانت چنڤييف المجاور لپاريس . ونشبت بينه وبين وليم ، وبين طلابهما ، حرب كلامية دامت عدة سنين ، وأصبح أبلار زعيم المحدثين أى الشبان المتمردين المتحمسين أصحاب المدرسة « الحديثة » . وبينما هو يخوض غمار هذه الحرب ترهبت والداه ، ولعلهما فعلا ذلك استعداداً للموت ، واضطر أبلار أن يعود إلى له باليه Le Pallet ليكون فى وداعهما ، وربما كان من أسباب عودته تسوية بعض المشاكل الخاصة بأملاك الأسرة . ثم رجع أبلار إلى باريس فى عام ١١١٥ ، بعد أن قضى بعض الوقت يدرس علوم الدين فى لاءون ، وأقام مدرسته ، أو بدأ منهج محاضراته ، فى قاعات نتردام التى كان يجلس فيها وهو طالب قبل ذلك الوقت باثنتى عشرة سنة أو نحوها . ويبدو أنه لم يلق فى ذلك معارضة ما . وكان وقتئذ من موظفى الكتدرائية وإن لم يصبح من قساوستها[٨] . وكان فى مقدوره أن يتطلع إلى

المناصب الكهنوتية العليا إذا لزم الصمت ؛ ولكن هذا الشرط كان ثقيلا عليه ، لأنه درس الأدب كما درس الفلسفة ، وكان أستاذاً فى عرض الآراء عرضاً واضحاً لطيفاً ؛ وكان كغيره من الفرنسيين يرى أن الوضوح فى التعبير واجب تحتمه المبادئ الخلقية ، ولم يكن يخشى أن يخفف من عبء حديثه بقليل من الفكاهة . وأقبل الطلاب من كثير من البلاد ليستمعوا إليه ، وكانت الفصول التى يدرس لها كبيرة كبراً أغناه بالمال وأذاع شهرته بين الأمم[٩] ، تشهد بذلك رسالة بعث بها إليه فولك Foulques رئيس أحد الأديرة يقول فيها :

بعثت إليك رومة أبناءها تعلّمهم ... ولم تمنع المسافة الشاسعة ، أو الجبال أو الوديان أو الطرق الموبوءة باللصوص ، الشبان من الإقبال عليك . وازدحمت فصولك بالشبان الإنجليز الذين عبروا البحر المفعم بالأخطار ، وأقبل عليك التلاميذ من جميع أنحاء أسپانيا وفلاندرز وألمانيا ، ولم يملّوا من الثناء على قوة عقلك . ولست أذكر شيئاً عن سكان باريس ، وأقاصى فرنسا التى كانت هى الأخرى ظمأى لتعليمك ، كأنه لا يوجد علم من العلوم لا يستطاع أخذه عنك[١٠] .

وما دام قد بلغ هذه الذروة من المجد والنجاح وبُعد الصيت ، فلِمَ لا يرقى إلى كرسى الأسقفية (كما ارتقى إليه وليم) ، ثم إلى كرسى رئيس الأساقفة ، ولِمَ لا يرقى إلى كرسى البابوية ؟

الفصل الثانى

هلـــواز

ويؤكد أبلار أنه ظل حتى ذلك الوقت « مستعففاً إلى أقصى حدود الاستعفاف » ، وأنه كان « حريصاً على الامتناع عن جميـــع ضروب الإفراط »(١١) . ولكن هلواز ابنة أخى فلبير Fulbert قس الكتدرائية كان لها من جمال الخلق والهيام بالعلم ما أثار كل ما كان كامنا فى أبلار من حساسية مرهفة برجولته وإعجاب بعقليته . وفى خلال تلك السنين المحمومة التى كانت الحرب ناشبة فيها بين أبلار ووليم عن الكلى وغير الكلى شبت هلواز من الطفولة إلى الأنوثة المكتملة ، يتيمة لم يبق لأبويها أثر . وبعث بها عمها إلى دير فى أرجنتى Argentuil لتقضى فيه عدداً كبيراً من السنين . فلما ذهبت إليه هامت بما فى مكتبته الصغيرة من الكتب هياما أصبحت معه أنبه راهبة فى الدير . ولما عرف فلبير أنها تستطيع التحدث باللاتينية بنفس الطلاقة التى تتكلم بها الفرنسية ، وأنها لم تكتف بهذا بل أخذت تتعلم العبرية(١٢) ، لما عرف هذا أعجب بها ، وجاء بها لتعيش معه فى بيته القريب من الكتدرائية .

وكانت فى سن السادسة عشرة حين اتصلت حياتها بحياة أبلار (١١١٧) ؛ وفى ظننا أنها سمعت به قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وما من شك فى أنها كانت قد أبصرت مئات الطلاب تغص بهم الأبهاء وقاعات المحاضرات ، وقد جاءوا ليستمعوا إليه ؛ ولعلها وهى ذات الحماسة الذهنية القوية قد ذهبت خفية أو علناً لترى وتسمع معبود علماء باريس ومثلهم الأعلى . وفى وسعنا أن نتصور حياءها وارتياعها حين أخبرها فلبير أن أبلار سيسكن معهما ويصبح معلّمها

الخاص . وها هو ذا الفيلسوف نفسه يفسر لنا أصرح تفسير كيف حدث هذا :

« وكانت هذه الفتاة الصغيرة هي التي . . . اعتزمت أن أرتبط بها برباط الحب . والحق أن هذا العمل من أسهل الأمور . فهاهو ذا اسمى على كل لسان ، ولى من مزايا الشباب والجمال ما لا أخشى معه أن ترفضنى امرأة ، أيا كان شأنها ، أتعطف عليها بحبى . . . وهكذا شرعت ، وقلبى ملتهب بحب هذه الفتاة ، أبحث عن الوسائل التى تمكنني من أن أتحدث إليها فى كل يوم حديث المودة الخالية من الكلفة ، حتى يسهل علىّ بذلك أن أحظى بموافقتها . ومن أجل هذا أقنعت عم الفتاة . . . أن يأوينى فى بيته . . . نظير أجر قليل أؤديه له . . . وكان هو رجلا بخيلا حريصا على المال و . . . اعتقد أن ابنة أخيه ستفيد كثيراً من تعليمى . . . ولقد ذهلت من سذاجة الرجل ، ولو أنه عهد بحَمَل وديع إلى عناية ذئب مفترس لما كنت أشد من ذلك دهشة وذهولا . . .

« ولِمَ أطيل القول ؟ واجتمعنا أولا فى المسكن الذى أظل حبنا ، ثم فى القلبين اللذين كانا يتحرقان بين جنبينا . وقضينا الساعات الطوال ننعم بسعادة الحب متسترين بستار الدرس . . . وكانت قُبلاتنا يزيد عديدها على كلماتنا المنطقية ، وكانت أيدينا أقل بحثاً عن الكتاب منها عن صدرينا ، وكان الحب يجذب عينىّ كل منا إلى الآخر(١٣) » .

وهكذا أحالت رقة هلواز العاطفة التى بدأت رغبة جسمية بسيطة « حناناً أذكى من عرف الطيب » . وكانت هذه تجربة جديدة فى حياته لهته عن الفلسفة ، فقد استعار من محاضراته وجداً وهياما لحبه ، فأضحت هذه المحاضرات مملة على خلاف عادتها . وأسف طلابه لما أصاب الجدلى المنطيق ، ولكنهم رحبوا بالعاشق ، وسرهم أن يعرفوا أن سقراط نفسه يمكن أن يأثم ، وعزوا أنفسهم عما فقدوه من الحجج الدامغة بترديد أغانى الحب التى بدأ يؤلفها ؛ وكانت هلواز

تسمع من نافذة بيتها أغانى افتتانه بها تتردد أصداؤها الصاخبة على ألسنة تلاميذه[١٤] .

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغته أنها حامل فما كان منه إلا أن اختطفها سراً من بيت عمها وأرسلها إلى بيت أخته فى بريطانى[١٥] . ودفعه الخوف من جهة والرحمة من جهة أخرى فعرض على عمها الغاضب الحانق أن يتزوجها بشرط أن يسمح له فلبير بأن يظل أمر الزواج سراً . ووافق القس على هذا ، وسافر أبلار إلى بريطانى فى أثناء العطلة ليحضر عروسه الرقيقة القلب غير الراضية بالزواج . وكان عمر ابنهما أسطرلاب Astorlabe ثلاثة أيام حين أقبل هو على والدته . وظلت هلواز زمناً طويلا ترفض الزواج به . ذلك أن إصلاحات ليو التاسع وجريجورى السابع كانت منذ جيل من الزمان قد حرمت مناصب القسيسين على المتزوجين إلا إذا ترهبت الزوجة ، ولم تكن هلواز مستعدة لأن تفارق رفيقها وابنها على هذا النحو ، وعرضت عليه أن تبقى عشيقته بحجة أن هذه العلاقة ، إذا ظلت سراً يخفى عن الناس بحكمة ، لن تحول بينه وبين الرقى فى مناصب الكنيسة كما يحول الزواج[١٦] . وقد أورد أبلار فى كتابه **تاريخ مصائبى** (الفصل السابع) فقرة طويلة يعزو فيها إلى هلواز فى هذا الظرف ثبتاً طويلا من المراجع والأمثلة المعارضة لزواج الفلاسفة ، وحججاً فصيحة قوية فى الاعتراض على « حرمان الكنيسة من ضوئه البراق » : « تذكر أن سقراط قد تزوج ، وكيف طهرت الفلسفة من هذا العار الذى دنسها تطهيراً خسيسا حتى يكون الناس بعدئذ أكثر حكمة وأحكم تدبيراً » ، ثم ينقل عنها قولها : « إنها أحلى لها كثيراً أن تسمى عشيقتى من أن يعرف الناس أنها زوجتى ، بل إن هذا يكون أيضا أشرف لى »[١٧] . ولكنه أقنعها بأن وعدها ألا يعرف الزواج إلا عدد قليل من أوثق الناس صلة بهما .

وتركا أسطرلاب مع أخت أبلار وعادا إلى باريس وتزوجا بحضور فلبير . وأراد أبلار أن يحتفظ بسرية الزواج فعاد إلى حيث كان يسكن وهو أعزب ، وعادت هلواز إلى السكنى مع عمها ، ولم يكن كلا الحبيبين يرى الآخر إلا نادراً وخلسة . ولكن فلبير ، فى حرصه على أن يسترد مكانته ، أخلف الوعد الذى قطعه لأبلار وأذاع السر ؛ وأنكرته هلواز ، « وأنزل بها فلبير العقاب بعد العقاب » . فما كان من أبلار إلا أن فر بها مرة أخرى ، وبعث بها هذه المرة ، على كره منها شديد ، إلى دير أرجنتى ، وأمرها أن ترتدى ثياب الراهبات ، وألاّ تقسم اليمين أو تلبس النقاب . ويقول أبلار إنه لما سمع فلبير وأقاربه بهذا « أيقنوا أننى قد غدرت بهم أشد الغدر ، وتخلصت إلى أبد الدهر من هلواز إذ أرغمتها على أن تترهب . فاستشاطوا من هذا غضباً ودبروا مؤامرة على ؛ وبينا كنت نائماً ذات ليلة . . . فى حجرة سرية بمسكنى ، إذ اقتحموها علىّ بمعونة خادم من خدمى قدموا له رشوة ، وانتقموا منى انتقاما شنيعا يجللهم العار . . . لأنهم بتروا أعضاء جسمى التى فعلت بها ما كان سبباً فى حزنهم . ولاذوا بالفرار بعد أن فعلوا فعلتهم ، ولكن اثنين منهم قُبض عليهما وفقدا أعينهما وأعضاء تناسلهما »(١٨) .

ولم يكن فى وسع أعدائه أن يختاروا له عقاباً أدل على مكرهم من هذا العقاب . نعم إنه لم يحط من منزلته لساعته ، فإن باريس كلها بمن فيها من رجال الدين عطفت عليه(١٩) ، وأقبل عليه طلابه يواسونه ، وانكمش فلبير واختفى وجرّ عليه النسيان ذيوله ، وصادر الأسقف أملاكه . ولكن أبلار أدرك أن قد قضى عليه ، وأن « قصة هذا الاعتداء الشنيع ستنتشر حتى تبلغ أطراف الأرض » . ولم يعد يستطيع التفكير فى الرقى فى مناصب الكنيسة ، وأحس أن سمعته الطيبة قد

« محيت من الوجود محواً تاما » ، وأنه سيكون مضغة فى أفواه الأجيال المقبلة . وشعر بأن فى سقوطه هذا قسطا من العدالة الطبيعية غير الشعرية ، فقد اجتث من لحمه ذلك الجزء الذى أذنب ، وغدر به نفس الرجل الذى غدر هو به من قبل . وأمر هلواز أن تلبس النقاب وتترهب ، وذهب هو إلى دير القديس دنيس وأقسم يمين الرهبنة(*) .

(*) اقرأ قصة هلواز وأبلار مفصلة فى الجزاء الأول من كتابنا : « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

obeikandl.com

الفصل الثالث

صاحب النزعة العقلية

وعاد إلى محاضراته بعد عام من ذلك الوقت (١١٢٠) مستجيبا لإلحاح طلابه ورئيس ديره ، وأخذ يلقيها فى « صومعة » فى شعبة دير ميزنسل Maisoncelle . ونظن أننا نجد فى كتبه أهم ما كان يحتويه منهج محاضراته . على أن هذه المحاضرات قد ألفها وهو قلق مضطرب على دفعات متقطعة ، لا نستطيع أن نحدد تواريخها . وقد راجعها فى سنيه الأخيرة حين تحطمت روحه ، ولسنا ندرى مقدار ما تحطم من حرارة الشباب بفعل الزمن . ولأبلار أربعة كتب صغرى فى المنطق تدور كلها حول مسألة الكليات . ولا حاجة بنا إلى أن نوقظها من رقادها ، لكن كتابه الجدل رسالة تقع فى ٣٧٥ صفحة فى المنطق بمعناه عند أرسطو : فهى تحليل عقلى لأجزاء الكلام ، وأدوات التفكير (المادة ، والكم ، والمكان ، والوضع ، والزمن ، والعلاقة ، والصفة ، والملكية والعقل ، « والعاطفة ») وأشكال القضايا المنطقية ، وقواعد الاستدلال . وكان من واجب عقل أوربا الغربية بعد أن استيقظ من سباته أن يوضح لنفسه هذه الأفكار الأساسية كما يفعل الطفل حين يتعلم القراءة . وكان الجدل أهم ما تعنى به الفلسفة فى أيام أبلار ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن الفلسفة الجديدة قد تفرعت من أرسطو عن طريق بوئيثيوس Boethius وبرفيرى . ولم يكن الجيل الأول من أصحاب الفلسفة المدرسية يعرف إلا رسائل أرسطو المنطقية (وحتى هذه الرسائل لم تكن كلها معروفة له) . ولهذا لم يكن كتاب أبلار فى الجدل كتاباً ممتعاً خلاباً . ولكننا نسمع فى صفحاته التى تعنى بالشكل قبل كل شىء إلى طلقة أو طلقتين من تلك المناوشات الأولى فى الحرب التى قامت بين الدين والعقل ودامت مائتى عام .

وكيف تستطيع ونحن فى عصر أخذ يشك فى العقل نفسه ، أن ندرك لألاء ذلك العهد الذى بدأ فى التو يكشف « سر المعرفة العظيم ؟ »(٢٠) ويقول أبلار إن الحق لا يمكن أن يناقض الحق ، وإن حقائق الكتاب المقدس يجب أن تتفق مع مكتشفات العقل ، وإلا لكان الله الذى وهبنا هذه وتلك يخدعنا بإحداهما(٢١)

ولعله قد كتب فى عهده الباكر — قبل مأساته — كتابه **حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى** . وفيه يقول : « إن ثلاثة رجال أقبلوا عليه فى رؤى أثناء الليل » وسألوه بوصفه أستاذاً ذائع الصيت ، أن يفصل فى نزاع قائم بينهم . وقالوا إنهم كلهم يؤمنون بالله ، وإن اثنين منهم يقبلان ما جاء بالكتب العبرية المقدسة ، أما الفيلسوف فيرفضها ، ويقترح أن يقيم حياته ومبادئه الأخلاقية على أساس العقل والقانون الطبيعى . ويرد عليهم الفيلسوف بقوله إن من أسخف السخف أن نستمسك بعقائد الطفولة . وأن نشارك الغوغاء فى أباطيلهم ، وأن نزج فى الجحيم من لا يقبلون هذه السخافات التى لا تفترق فى شىء عن عبث الأطفال ! » . ويختتم قوله اختتاما غير فلسفى فيرمى اليهود بالبلاهة والمسيحيين بالجنون . ويرد عليه اليهودى بقوله إن الناس لا يستطيعون الحياة بغير القوانين ؛ وإن الله قد فعل ما يفعله الملك الصالح فأنزل على الناس دستوراً للأخلاق الفاضلة ، وإن تعاليم التوراة هى التى أبقت على شجاعة اليهود وأخلاقهم خلال ما أصابهم من التشتت والمآسي التى دامت قروناً طوالا . فيسأله الفيلسوف : وكيف إذن عاش آباؤكم هذه المعيشة النبيلة قبل أن يرسل موسى وشرائعه بزمن طويل ؟ — وكيف تؤمنون بوحى يعدكم بالنعيم فى الدنيا ، ومع هذا فقد ترككم تقاسون آلام الفاقة والبؤس ؟ ويقبل المسيحى كثيراً مما قاله الفيلسوف واليهودى ، ولكنه يقول إن المسيحية قد تمت وأكملت شريعة الفيلسوف الطبيعية وشريعة اليهودى الموسوية ؛ وإنها قد سمت بمثل الإنسانية العليا إلى درجة لم تسم إليها قط من قبل ؛ فلا

الفلسفة ولا اليهودية ، كما جاءت فى الكتب المقدسة ، قد وهبت الإنسان سعادة سرمدية ؛ أما المسيحية فتهب الإنسان القلق المعذَّب ، هذا الأمل فى السعادة ، وهى لهذا عظيمة القيمة إلى أبعد حد . الا إن هذا الحوار الذى لم ينته إلى غاية لهو ثمرة رائعة من نتاج قس فى كتدرائية بباريس عام ١١٢٠ .

وقد وَجَدت حرية فى النقاش شبيهة بهذه الحرية نفسها منفذاً لها فى كتاب آخر لأبلار يعد أشهر كتبه على الإطلاق ، وهو كتاب نعم ولا sic et non (١١٢٠) . ونجد أول ذكر لهذا الكتاب فى رسالة كتبها رجل من سانت تييرى St. Tierry يدعى William إلى القديس برنار (١١٤٠) يصف فيها ذلك الكتاب بأنه كتاب مريب يوزع سراً بين تلاميذ أبلار والمتشيعين له[٢٣] . ثم اختفى هذا الكتاب بعدئذ من التاريخ حتى عام ١٨٣٦ حين كشف ڤكتور كوزن Victor Cousin المخطوط بمكتبة فى أڤرانش Avranche . وما من شك فى أن شكل الكتاب نفسه قد أحزن هذه الأسقف ؛ ذلك أنه يبدأ بمقدمة تنم عن التقى والصلاح ، ثم ينقسم إلى ١٥٧ سؤالا تشمل أهم العقائد الأساسية للدين ؛ وقد وضعت فى عمودين متقابلين تحت كل سؤال طائفتان من الأقوال إحداهما تؤيد الرد الإيجابى والأخرى تؤيد الرد السلبى ، وكلتاهما مقتبسة من الكتاب المقدس ، أو من كتب آباء الكنيسة ، أو من الآداب اليونانية الرومانية القديمة ، بل إن بعضها مقتبس من فنون الحب لأوڤد . وقد يكون القصد من تأليف هذا الكتاب هو أن يكون مراجع يُلجأ إليها فى النقاش المدرسى ، ولكن مقدمته تنتقص من قيمة الاعتماد على آباء الكنيسة — سواء أراد الكاتب ذلك أو لم يرده — لأنها تظهر ما بينهم من التناقض ، بل إنها لتظهر تناقض كل منهم لنفسه . ولم يشك أبلار فى قيمة الكتاب المقدس بوصفه مرجعاً دينياً ، ولكنه يقول إن لغته قد كتبت لغير المتعلمين ، وإنها يجب تفسيرها

بالرجوع إلى العقل والمنطق . غير أن النص المقدس قد فسد فى بعض الأحيان لما أضيف إليه زوراً ، أو لعدم العناية بالنسخ ؛ ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آباء الكنيسة بعضها بعضاً ، وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعتماد على العقل . وكتب فى نفس كلمة الافتتاح عبارة استبق بها شكوك ديكارت بأربعمائة عام فقال ؛ « إن أول مفاتيح الحكمة هو المثابرة على الأسئلة وتكرارها . . . لأن الشك يؤدى بنا إلى البحث ، والبحث يوصلنا إلى النتيجة »(٢٤) . ويقول إن عيسى نفسه حين واجه العلماء فى المعبد أمطرهم وابلا من الأسئلة . ويكاد الحوار الأول فى الكتاب يكون إعلاناً لاستقلال الفلسفة : « يجب أن يكون أساس الإيمان فى عقل الإنسان وفى القضايا المتناقضة » . وهو ينقل أقوالا عن أمبروز ، وأوغسطين ، وجريجورى الأول ، تؤيد الإيمان ، ويستشهد بأقوال من هيلارى Hilary ، وچيروم ، وأوغسطين ، على أن من الخير أن يستطيع الإنسان أن يثبت دِينه بالاعتماد على العقل . ويكرر أبلار استمساكه بأصول الدين ، ولكنه يعرض للجدل مسائل مثل : الإرادة الإلهية ، والإرادة الحرة ، ووجود الخطيئة والشر فى عالم خلقه إله خيِّر قادر على كل شىء ، واحتمال أن يكون الله غير قادر على كل شىء . وما من شك فى أن استدلاله الحر فى هذه المسائل قد زلزل إيمان الطلاب الشبان المولعين بالجدل . على أن هذه الطريقة — طريقة التعلم بالبحث الحر إلى أقصى حدود الحرية — أضحت هى الخطة المألوفة المتبعة فى الجامعات الفرنسية وفى الكتابات الفلسفية والدينية ؛ وأكبر الظن أنها قد سلكت هذه السبيل بفضل المثل الذى ضربه لها أبلار(٢٥) . وسنرى القديس تومس يتبعها دون أن يخشى شيئا ودون أن يوجه إليه لوم ؛ وهكذا وَجدت النزعة العقلية مكاناً لها فى مستهل عهد الفلسفة المدرسية .

وإذا كان كتابه **نعم ولا** لم يغضب إلا عدداً قليلاً من الناس لأنه لم يوزع منه إلا عدد قليل من النسخ ، فإن ما حاوله أبلار من تحكيم العقل فى

موضوع التثليث — وهو الموضوع الشديد الغموض — لم يكن له ذلك الأثر الضيق الذى كان لهذا الكتاب ، ولم يكن ارتياع الناس له محصوراً فى القليل منهم ؛ وذلك لأنه كان موضوع محاضراته التى ألقاها فى عام ١١٢٠ ، وموضوع كتابه **فى وحدة الإله والتثليث** . وقد كتب هذا الكتاب ، كما يقول هو نفسه : « لطلاّبى لأنهم كانوا على الدوام يبحثون عن المعقول وعن الشروح الفلسفية ، ويسألون عما يستطيعون فهمه من الأسباب لا عن الألفاظ دون غيرها ، ويقولون إن من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها ، وإنه لا شىء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولا ، وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشىء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه[٢٦] » .

وهو يقول إن هذا الكتاب « انتشر انتشاراً واسعا جداً » وإن الناس أعجبوا بما فيه من دقة . وقد أشار فيه إلى أن وحدة الله هى النقطة الوحيدة التى يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسفة . ففى الله الواحد الأحد تشهد قدرته بوصفه الأقنوم الأول ، وحكمته بوصفه الأقنوم الثانى ، ونعمته ، وإحسانه ، وحبه بوصفها الأقنوم الثالث . وهذه كلها نواح أو أعراض من الجوهر القدسى ؛ ولكن جميع أفعال الله تتضمن وتجمع فى الوقت عينه قدرته ، وحكمته ، وحبه[٢٧] . وقد شعر كثيرون من رجال الدين بأن هذا التشبيه مما يمكن التجاوز عنه والسماح به ؛ ورفض أسقف باريس ما طلبه إليه روسلان — وكان قد أصبح وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن مستمسكا بالدين — أن يتهم أبلار بالكفر ؛ ودافع چيفروى Geoffroy أسقف شارتر عن أبلار طوال فترة السخط الذى حل بهذا الفيلسوف المستهتر . ولكن ألبريك Alberic ولوتاف ، وهما مدرسان فى ريمس كانا قد تنازعا مع أبلار فى لاءون عام ١١١٣ ، حرّضا كبير الأساقفة على أن يأمره بالمجىء إلى سواسون ومعه كتابه عن التثليث ، وأن يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما قدم أبلار إلى سواسون (١١٢١) وجد أن الغوغاء قد أثيروا عليه ، وأنهم

« يوشكون أن يرجمونى بالحجارة . . . لاعتقادهم أنى قلت بوجود آلهة ثلاثة »[٢٨] . وطاب أسقف شارتر أن يستمع المجلس إلى دفاع أبلار عن نفسه ، ولكن ألبريك وغيره رفضوا طلبه بحجة أن أحداً لا يستطيع أن يدحض حجج أبلار ولا يسعه إلا أن يقتنع بأقواله . وأدانه المجلس من غير أن يستمع إليه ، وأرغمه على أن يلقى كتابه فى النار ، وأمر رئيس دير القديس ميدار Medard أن يحجزه فى الدير سنة كاملة ، ولكن مرسوماً بابوياً أفرج عنه بعد وقت قصير ، وأعاده إلى دير القديس دنيس .

وقضى أبلار فى الدير سنة فى شجار دائم مع رهبانه المشاكسين ، ثم حصل بعد ذلك من رئيس الدير الجديد سوجر Suger العظيم على إذن بأن يبنى لنفسه صومعة فى بقعة منعزلة فى منتصف المسافة بين فونتينبلو Fontainebleau وتروى (١١٢٢) ، وهناك أقام بمعونة رفيق فى الدرجات الدنيا من الرهبنة مصلى صغيرة من القش والغاب سماها « الثالوث المقدس » . ولما سمع الطلاب أنه قد أجيز له مرة أخرى أن يُدرِّس أقبلوا عليه ، وجعلوا من أنفسهم مدرسة عاجلة مرتجلة ، وبنوا أكواخاً بجوار المصلى ، وناموا على القش والبوص ، وطعموا « الخبز الخشن وأعشاب الحقول »[٢٩] . وظهر فى هذا المكان تعطش للعلم ما لبث أن أوجد الجامعات وملأها بالطلاب . والحق أن العصور المظلمة أضحت فى هذا المكان وكأنها كابوس أوشك أن يدرج فى طيات النسيان . وأخذ الطلاب ، فى نظير ما يلقيه من المحاضرات ، يحرثون الأرض ، ويقيمون الأبنية ، وأنشأوا له مصلى جديدة من الخشب والحجارة سماها الروح القدس ، كأنه يريد أن يقول إن حب مريديه قد نزل عليه نزول الروح القدس فى اللحظة التى فر فيها من المجتمع إلى العزلة واليأس .

ولم تكن الثلاث السنين التى قضاها فى ذلك المكان أقل سعادة من أية سنين عرفها من قبل . وأكبر الظن أن المحاضرات التى ألقاها على هؤلاء

obeikandl.com

الطلاب المشوقين قد احتُفظ بها وأعيدت صياغتها فى كتابين يسمى أحدهما **الدين المسيحى** Theologia Christiana ويسمى الثـانى **الدين** Theologia لا غير . وكانت العقائد الواردة فى الكتابين مطابقة للدين القويم ، ولكن العصر الذى كان حتى ذلك الوقت غريباً عن معظم آراء الفلسفة اليونانية قد راعه بعض الشيء أن يجد فى الكتابين إشارات إلى المفكرين الوثنيين مصحوبة بالثناء عليهم ، كما وجد فيها ما يشير إلى أن أفلاطون أيضاً قد استمتع إلى حد ما بالإلهام الإلهى[٣٠] . ولم يكن فى وسع أبلار أن يعتقد أن جميع هذه العقول العظيمة الفذة السابقة للمسيح قد فاتتها أسباب النجاة[٣١] ، وأصر على أن الله يفيض حبه على جميع الناس ، وفيهم اليهود والكفار[٣٢] ؛ وعاد أبلار فى غير ندم يدافع عن تحكيم العقل فى أمور الدين ، وقال إن الملحدين يجب أن يردوا عن إلحادهم بالعقل والمنطق لا بالعنف[٣٣] ، وإن الذين يوصون بالإيمان بلا فهم إنما يسعون فى كثير من الأحيان لستر عجزهم عن أن يعلِّموا الدين تعليماً يدركه العقل[٣٤] ، وتلك شوكة نفذت من غير شك فى جلود بعض الناس ! فقد يبدو أن أبلار حين يحاول تفسير الدين المسيحى تفسيراً ينطبق على العقل والمنطق ، لم يجرؤ على أكثر مما حاوله الإسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس من بعده ؛ ولكن أبلار حاول أن يدخل أكثر عقائد الكنيسة خفاء وأعمقها غوراً فى قبضة العقل ، على حين أن تومس رغم شجاعته وجرأته ترك مسألة التثليث ، وخلق العالم فى زمن محدد ، لإيمان بعيد عن متناول العقل ، وفوق إدراكه .

وخلقت له جرأته على هذا التفكير وحدة ذهنه المتجددة أعداء جدداً . فقد كتب يشير فى أغلب الظن إلى برنار الكليرفوكسى Bernard of Clairvaux ونوربرت Norbert مؤسس طائفة البريمنستراتنسيين يقول :

يهرول بعض الرسل الجدد ، الذين يثق العالم فيهم أعظم الثقة ، هنا وهناك ...

ينهشون عرضي دون حياء . ولا يتركون لذلك سبيلا إلا سلكوها . حتى أفلحوا على مر الزمن فى أن يجعلونى هدفاً لسخرية الكثيرين من ذوى السلطان . . . ويشهد الله أننى كلما علمت بأن اجتماعاً جديداً لرجال الدين قد دعى إلى الانعقاد ، اعتقدت أنهم لم يدعوا إلا لغرض واحد صريح هو إدانتى (٣٥) .

ولعله أراد أن يكسب أولئك الناقدين . فترك التدريس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس فى بريطانى (١١٢٥ ؟) . ولكن أرجح من هذا أن سوجر هو الذى نظم بدهائه وحكمته هذه النقلة ،وأملا بهذا أن تسكن العاصفة . وكان فى هذا الانتقال ترقية لأبلار وسجن له فى وقت واحد ، فقد ألقى الفيلسوف نفسه وسط سكان من « البرابرة » الذين « لا يفهمون » ، وبين رهبان « أدنياء لا يُرَوَّضون » يعيشون جهرة مع حظياتهم (٣٦) . ونفر أولئك الرهبان من إصلاحاته فدسوا له السم فى الكأس التى كان يشرب منها وقت العشاء الربانى . فلما خاب تدبيرهم هذا رشوا خادمه بأن يدس له السم فى الطعام ؛ ولكن راهباً غيره تناول الطعام « وخر صريعاً من فوره » (٣٧) . غير أن مرجعنا الوحيد فى هذه الأقوال هو أبلار وحده . واستبسل أبلار فى النضال فى هذه المعركة لأنه بقى فى هذا المكان المنعزل إحدى عشرة سنة تتخللها بعض فترات كان فى أثنائها بعيداً عنه .

الفصل الرابع

رسائل هلواز

ومرت به فترة من السعادة المعتدلة حين قرر سوجر أن يستخدم البيت الذى فى إرجنتى لأغراض أخرى غير الدير . وكانت هلواز مذ افترقت عن أبلار قد عكفت فى هذا البيت على أداء الواجبات التى تفرضها عليها حياة الرهبنة حتى عينت رئيسة الدير و « علت مكانتها عند الجميع . . . فأحبها الأساقفة حب الآباء للأبناء ، وأحبها رؤساء الأديرة حب الإخوة للأخوات ، وأحبها غير رجال الدين كما يحب الأبناء الأمهات » . ولما علم أبلار أن هلواز ومن معها من الراهبات يبحثن عن مكان لهن جديد ، عرض عليهن مصلى « الروح القدس » ومبانيها ، وذهب بنفسه ليساعدهن على تنظيم إقامتهن فى مقرهن الجديد . وكثيراً ما كان يزورهن ليعظهن ويعظ القرويين الذين أقاموا بالقرب منهن . وهمس النمامون « أننى لا زالت تسيطر علىّ مباهج الحب الأرضى ، وأنا الذى لم أكن أطيق فى الأيام الخالية أن أفارق من امتلأ قلبى بحبها »(٣٨) .

وكانت هذه الفترة المضطربة التى قضاها رئيساً لدير القديس جلداس هى التى كتب فيها سيرته « تاريخ مصائبى » (١١٣٢) . ولسنا نعرف الباعث له على كتابة هذه السيرة ، فهى تتخذ شكل مقالة يواسى بها صديقاً يشكو بؤسه ، « حتى إذا وازنت أحزانك بأحزانى ، رأيت أن أولاهما ليست إلى جانب الثانية بالتى تستحق الذكر » ؛ ولكن يبدو أن هذه السيرة كان يقصد بها أن يطلع عليها العالم ، وأن تكون اعترافاً أخلاقياً ، ودفاعاً دينياً . وتقول رواية قديمة ، ولكنها مما لا يمكن تحقيقه ، إن نسخة من الكتاب وصلت إلى يد هلواز ، وإنها ردت عليه هذا الد د العجيب :

« إلى سيدها ، بل أبيها ، إلى زوجها ، بل أخيها : من خادمته ، بل ابنته ، من زوجته ، بل أخته : إلى أبلار ، من هلواز :

« لقد جيء إليّ مصادفة منذ زمن قريب بخطابك الذى كتبته يا حبيبى تعزية إلى صديق ... وقد حوى أشياء لايستطيع أحد أن يطلع عليها دون أن تفيض عيناه بالدمع لأنها تجدد أحزانى كاملة... فباسم الله الذى لايزال يرعاك.:. باسم المسيح ، ونحن خادماته وخادماتك ، نستحلفك أن تتفضل فتخبرنا فى رسائل منك متتابعة عن المصائب التى لازالت تتقاذفك حتى نشاركك على الأقل فى أحزانك ومسراتك ، نحن الذين بقينا على الدوام أوفياء لك ...

« إنك لتعرف يا أعز الناس عليّ — وإن الناس كلهم ليعرفون — ماذا خسرتُ بفقدك ... لقد بدلت ثيابى وقلبى طوعاً لأمرك ، كى أظهر لك أنك مالك جسمى وعقلى ... ولم أكن أتطلع إلى عهد الزواج ، أو إلى مهر تمهرنى به .:. وإذا كان اسم الزوجة يبدو أكثر قداسة وأقوى رابطة ، فإنّ أحب إليّ ، اسم الصديقة منه وأعذب على الدوام ؛ أو ، إذا لم يكن فى هذا ما تستحى منه ، اسم العشيقة أو العاهرة ... وإنى لأشهد الله لو أن أغسطس الذى حكم العالم كله رأى أنى خليقة بأن يكون لى شرف الزواج به ، وأن يملّكنى العالم بأسره أحكمه حكما يدوم أبد الدهر ، لكان قولهم إنى مومسك أحب إليّ من قولهم إنى إمبراطورته ...

« وهل بين الملوك أو الفلاسفة من يضارعك فى شهرتك ؟ وأية مملكة أو مدينة أو قرية لم تتحرق شوقاً لرؤيتك ؟ ومَن من الناس لم يستحث الخطى لينظر إليك ، حين تبدو أمام الجماهير ؟ ... وأية زوجة ، وأية عذراء ، لم تتلهف عليك وأنت غائب ، أو تتحرق شوقاً إليك وأنت حاضر ؟ وأية ملكة أو سيدة ذات سلطان لم تحسدنى على مباهجى وفراشى ؟

« هلا حدثتنى عن شيء واحد إن استطعت : لم أهملتنى ونسيتنى ، بعد أن سلكتُ سبيل الحياة الدينية التى كنت أنت دون غيرك الآمر بها ، فلم أحظ بعدئذ

بكلمة منك أو نظرة إليك تبتهج بها نفسي ، أو رسالة منك غيبتك يرتاح لها قلبي ؟ ألا فحدثني عن شيء واحد لا أكثر إن استطعت ، أو دعني أفض إليك بما أحس به ، بل ما يظنه الناس جميعاً : إن الشهوة الجنسية لا الحب هي التي وثقت الصلة بيني وبينك ... فلما أن نلت ما تبغيه ، زال من فوره كل ما كنت تتظاهر به ... ليس هذا يا أحب الناس إليّ ، ما أظنه أنا وحدي ، بل ما يظنه الناس جميعاً ... وكم كنت أتمنى أن يكون هذا ظني دون غيري ، وأن يجد حبك من يبرره غيري فتخفّ بذلك بعض الشيء لواعج أحزاني .

« أتوسل إليك أن تستمع لما أطلبه إليك ... في الوقت الذي أخادع نفسي فيه بوجودك معي في ألفاظك المكتوبة على الأقل — وهي ألفاظ لديك منها الشيء الكثير — أهد إليّ صورتك الحلوة ... فأنا أستحق منك أكثر منها ... بعد أن فعلت من أجلك كل ما يمكن فعله ... أنا التي غويت حياة الدير الخشنة في سن الشباب ... لا عن تقى وحب للدين بل إطاعة لأمرك لا لشيء سواه .. ولست أنتظر ثواباً من الله على هذا العمل ، لأني لم أعمل شيئاً لوجه الله كما تعرف ذلك حق المعرفة ... ولذلك أستحلفك باسم الذي وهبت له نفسك ، وأتوسل إليك أمام الله أن تعيد إليّ وجودك بأية سبيل في استطاعتك ، ولو بكلمة منك تخفف عني آلامي ... وداعاً يا كل من أحب »(٣٩) .

لكن أبلار كان عاجزاً عجزاً جسمياً عن أن يستجيب إلى هذه العواطف الجياشة بعواطف من نوعها ، ولهذا كانت الرسالة التي تعزوها إليه الرواية المتواترة تذكيراً لها بالنذر الديني الذي نذر له نفسه : « إلى هلواز أخته العزيزة في المسيح ، من أبلار أخيها في المسيح نفسه » ؛ وهو يوصيها بأن تقبل ما حل بهما من مصائب خاضعة لها ، راضية بها ، على أنها تطهير وعقاب للنجاة من عند الله . ويطلب إليها أن تدعو له ، ويأمرها أن تخفف من أحزانها بأملها في أن يجتمعا معاً في السماء ، ويرجوها أن تواريه الثرى حين يموت في أراضي « الروح

القدس » . وتعيد فى رسالتها الثانية عبارات الهيام وعدم التقى فتقول : « لقد كنت على الدوام أخشى أن أغضبك ، لا أن أغضب الله ، وأعمل على رضائك أكثر مما أعمل على رضائه ... فانظر أية حياة تعسة لابد أن أحياها إذا كنت أقاسى كل هذا عبثاً ، لا أمل لى فى أن أثاب عليه فى المستقبل . لقد ظللت ، كما ظل الكثيرون غيرك زمناً طويلا مغروراً بخداعى وتمويهى فحسبت النفاق ديناً »(٤٠) . فيجيبها بأن المسيح ، لا هو ، قد أحبها بحق : لقد كان هيامى شهوة جنسية لا حباً ، ولقد أشبعت شهوتى الدنيئة فيك ، وكان هذا كل ما أحببت... فاذرفى الدمع من أجل منقذك لا من أجل من أغواك ، من أجل منجيك لا من أجل مدنسك(٤١) . ثم يؤلف دعاء مؤثراً يطلب إليها أن تتلوه من أجله . وتبدو فى رسالتها الثالثة وقد استسلمت لموت حبه الدنيوى ؛ ولا تطلب إليه وتتنذ إلا قاعدة جديدة تستطيع هى ومن معها من الراهبات أن يحيين بها حياة دينية حقة. ويستجيب هو إلى رغبتها ويضع لهن دستوراً رحيما معتدلا ، ويكتب مواعظ يقوى بها إيمانهن . ويبعث بهذه كلها إلى هلواز موقعة بتوقيع دقيق : « وداعاً فى الرب إلى خادمته ، من كانت فى وقت ما عزيزة علىّ فى هذا العالم ، وأضحت الآن أعز الناس فى المسيح » . لقد كان فى ثنايا قلبه المحطم لا يزال يهيم بحبها .

وبعد ، فهل هذه الرسائل الشهيرة حقيقية ؟ إن هذه المشكلة لتواجهنا قوية مستعصية . يقال إن أولى رسائل هلواز قد كتبت على أثر ظهور كتابه **تاريخ مصائبى** وهو يذكر فيه عدة زيارات قام بها أبلار لهلواز فى **الروح القدس** ؛ ومع هذا فهى تشكو أنه أغفلها . ولكن لعل تاريخه قد ظهر أجزاء منقطعة ، وأن الأجزاء الأولى منه وحدها هى السابقة على الرسالة . ثم إن النزعة الشهوانية الخريئة الظاهرة فى بعض فقراتها تبدو غير معقولة لصدورها من امرأة أكسبها تقاها وتفانيها فى أمور الدين مدى أربعة عشر عاما ذلك الإجلال السامى عند جميع الناس . وهو الإجلال الذى يشهد به بطرس المبجل Peter the Venerable

كما يشهد به أبلار . يضاف إلى هذا ما فى الرسائل من تنميق بلاغى ومقتبسات من كتب الأدب القديم ، ومن كتب الآباء ، دالة على التحذلق والتكلف لا يمكن وجودها فى عقل يحس إحساسا صادقا بالحب أو التقى أو الندم . وفوق هذا كله فإن أقدم مخطوطات هذه الرسائل يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر . ويبدو أن چان ده مونج قد ترجمها من اللغة اللاتينية إلى الفرنسية فى عام ١٢٨٥[٤٢] ؛ وإلى أن نجد أدلة أكثر مما لدينا قوة فإن لنا أن نختتم هذا الفصل بقولنا إنها من أبدع الوثائق المزورة فى التاريخ ، وإن حوادثها غير موثوق بصحتها ، ولكنها قسم خالد لا يفنى من أدب فرنسا الغرامى[٤٣] .

obeikandl.com

الفصل الخامس

الملـــحد

لسنا نعرف متى فر أبلار من منصبه العالى فى رياسة الدير ومما كان يعانيه من آلام أو كيف أتيح له هذا الفرار. فهاهو يوحنا السلزبرى يقول إنه استمع إلى محاضرات أبلار على جبل سانت چنڤييڤ فى عام ١١٣٦ ، كذلك لا نعرف أى رخصة أجازت له أن يعود إلى التعليم ، ولعله لم يطلب ترخيصا ما ، ولعله قد استهزأ فى وقت ما بآداب الكنيسة فثار عليه رجالها وسلكوا ضده سبلا ملتوية أدت إلى سقوطه الأخير.

وإذا كان إخصاؤه قد أزال رجولته ، فإنا لا نرى أثراً لهذا فى الكتب التى نقلت إلينا أسس تعاليمه . وإن من الصعب علينا أن نجد فيها خروجا صريحا على الدين ، وإن كان من اليسير أن نجد فيها فقرات أثارت بلا ريب غضب رجال الدين . من ذلك أنه يقول فى كتاب له عن فلسفة الأخلاق عنوانه **اعرف نفسك** Scito te ipsum إن الخطيئة ليست فى العمل نفسه بل فى نية العامل ، وإن العمل أيا كان — حتى القتل نفسه — ليس خطيئة فى ذاته . مثال ذلك أن أماً لم تجد لديها من الثياب ما يكفى لتدفئة طفلها فضمته إلى صدرها وأماتته خنقاً على علم منها ، لقد قتلت هذه الأم طفلها الحبيب إليها فعاقبها القانون العقاب الذى تستحقه كى يصبح غيرها من النساء أكثر منها عناية ، ولكن هذه الأم بريئة من الذنب عند الله . وفوق هذا فلكى تكون هناك خطيئة ، يجب أن يكون مرتكبها قد خالف ضميره الأخلاقى لا ضمير غيره من الناس وحدهم ، وعلى هذا فإن قتل الشهداء المسيحيين لا يعد إثما ارتكبه الرومان الذين كانوا يشعرون بأن

اضطهاد هؤلاء المسيحيين واجب للإبقاء على دولتهم أو دينهم الذى خالوه صحيحاً . وأكثر من هذا « أن الذين اضطهدوا المسيح أنفسهم أو اضطهدوا أتباعه ، وهم يرون من واجبهم أن يضطهدوهم ، قد ارتكبوا إثما من حيث عملهم ، ولكن لو أنهم امتنعوا عن اضطهادهم مخالفين بذلك ما تمليه عليهم ضمائرهم لارتكبوا بذلك إثما أكبر »(٤٤) . قد يكون هذا كله منطقا سليما ومثيراً معا ، ولكن إذا أخذ بهذه النظرية فإن عقيدة الخطيئة من أولها إلى آخرها من حيث مخالفتها لأوامر الله معرضة لأن تتبخر فى تيار الجدل القائم حول النيات فلا يبقى لها وجود قط ؛ فأى الناس ، إذا استثنينا القديس بولس وعدداً قليلا ممن هم على شاكلته ، يعترف بأنه عمل ما يخالف ضميره ؟ وكانت ست فقرات من الفقرات الست عشرة التى أدين أبلار من أجلها فى عام ١١٤١ مأخوذة من هذا الكتاب .

وكان الذى أزعج الكنيسة أكثر من أى إلحاد معين تبينته عند أبلار هو افتراضه أن لا أسرار فى الدين ، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل ، ولم يكن ثمة غرابة فى صدور هذا القول منه . ألم يكن ثملاً بنشوة المنطق الذى جرؤ على أن يربطه بكلمة لله ويكاد يجعله من العلوم القدسية ؟(٤٥) . ولنا أن نتساءل كم من العقول القاصرة غير الناضجة التى تأثرت بجرثومة ذلك التحليل المنطقى قد ضلت طريقها بحججه الطلية المؤيدة والمعارضة إذا سلمنا بأن هذا الاستاذ الذى افتتن به الناس وأغواهم قد وصل بأساليب غير مستقيمة إلى نتائج صحيحة سليمة ؟ ولو أنه لم يكن له أمثلة من نوعه لترك وشأنه دون أن يناله أذى ، رجاء ألا يطول أجله . لكنه كان له أتباع متحمسون ، وكان ثمة معلمون غيره — وليم الكنشى William of Conches ، وجلبرت ده لاپريه Gibert de la Porrée ، وبرنجر الثورى Berenger of Tours — وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل . فإذا ظل هذا التيار يجرى فى مجراه ، فإلى متى تستطيع الكنيسة أن تحتفظ بوحدة العقيدة الدينية وقوة الإيمان

اللتين يقوم عليهما — فيما يبدو لها — نظام أوربا الأخلاقى والاجتماعى ؟ ألم يشرع آرنلد البرشيانى Arnold of Brescia أحد تلاميذ أبلار يشعل فعلا نار الثورة فى إيطاليا ؟

وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات أو نحوها هى التى أوقفت القديس برنار موقف العداء جهرة أمام أبلار . ذلك بأن حارس الدين الحريص على سلامته قد اشتم رائحة الخطر الذى يتهدد معتنقيه ، فقاد المؤمنين إلى النضال . وكان من وقت بعيد ينظر بعين الارتياب إلى هجمات العقل الجرىء المتربص بالدين ؛ ويبدو له أن طلب العلم إذا لم يقصد به خدمة الدين هو الوثنية بعينها ؛ أما أن يحاول إنسان تفسير الأسرار المقدسة بقواعد العقل والمنطق فهو المعصية والحماقة ؛ والعقل الذى يبدأ بتفسير هذه الأسرار الخفية سينتهى آخر الأمر إلى تدنيسها . ولم يكن القديس بالرجل الشرس المتربص للشر ؛ ذلك أنه لما آن لفت وليم التييرىّ أحد رهبان ريمس نظره فى عام ١١٣٩ إلى ما فى تعاليم أبلار من خطر ، وطلب إليه أن يتهم الفيلسوف ، صرف الراهب من عنده ولم يفعل شيئاً . ولكن أبلار نفسه استعجل الأمور بأن كتب إلى كبير أساقفة سان Sens أن تتاح له أثناء انعقاد مجلس الكنيسة المقبل فى تلك المدينة ، فرصة يدفع فيها عن نفسه تهمة الإلحاد التى يذيعها بعضهم عنه ؛ ووافق كبير الأساقفة على هذا الطلب ، لأنه لم يكن يرى بأساً فى أن يكون كرسيه قبلة العالم المسيحى ؛ وأراد أن يكون الكفاح قويا فدعا برنار إلى الحضور ، ولكنه أبى وقال إنه سيكون فى حلبة الجدل « طفلا لا أكثر » أمام أبلار الذى تدرب على المنطق أربعين عاما ؛ غير أنه كتب إلى عدد من الأساقفة يحثهم على الحضور للدفاع عن الدين :

« يحاول بطرس أبلار أن يقوّض فضائل الدين المسيحى حين يدعى لنفسه القدرة على فهم الله فهما كاملا بالاعتماد على العقل البشرى . فهو يرقى إلى السموات العلا ، وينزل إلى الأغوار السحيقة ؛ ولا يستطيع شىء أن يختفى

عنه ! . . . وهو لا يكتفى بأن ينظر إلى الأشياء من خلال المنظار نظرة غير واضحة ، بل يرى أن لا بد له من النظر إلى الأشياء وجها لوجه . . . إن فيه لشبهاً بأريوس حين يتحدث عن التثليث ، وبلاچيوس Pelagius حين يتحدث عن البركة ، ونسطوربوس حين يتحدث عن شخص المسيح . . . إن دين المتقين هو الإيمان والتصديق ، لا المجادلة ؛ أما هذا الرجل فليس له عقل يصدق به ما لم يسبق له أن ناقشه بمنقطه[٤٦] .

وتغلب أتباع برنار عليه ، وأظهروا له ضعفهم ، فاضطروه إلى الحضور ؛ فلما أقبل أبلار على سان (يونية سنة ١١٤٠) وجد الجماهير ، كما وجدها فى سواسون قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، ثائرة عليه لمجرد وجود برنار فى المدينة ، ولعدائه الشديد له ، حتى لم يكن يجرؤ على الظهور فى شوارعها . أما كبير الأساقفة فقد حقق حلمه ، لأن سان بدت أسبوعا كاملا وكأنها مركز العالم كله . لقد جاء إليها ملك فرنسا تحف به حاشيته الفخمة ، وأقبل عليها عشرات من كبار رجال الكنيسة ، وكان برنار الذى أقعدته الرثية وعلت وجهه صرامة القداسة يبعث الرعب فى قلوبهم جميعاً ؛ وكان بعض أولئك الأحبار قد أحسوا فرادى أو مجتمعين بوخز الطعنات التى وجهها أبلار لمعائب رجال الدين ، ولفساد أخلاق القساوسة والرهبان ، وبيع صكوك الغفران ، واختراع المعجزات الزائفة . وأيقن أبلار أن المجلس سيدينه ، فحضر جلسته الأولى وأعلن أنه لن يرضى بأن يحكم عليه غير البابا نفسه ؛ ثم غادر الاجتماع وخرج من المدينة . ولم يكن المجلس واثقاً ، بعد أن طلب إليه التنحى عن الحكم ، أن من حقه قانوناً أن يحاكم أبلار ؛ ولكن برنار أكد له أن هذا من حقه ، فأخذ المجلس يطعن فى ست عشرة مسألة منتزعة من كتب أبلار ، ومن بينها تعريفه للذنب ، ونظريته فى التثليث التى يقول فيها إنه هو القدرة ، والحكمة ، والحب من صفات الإله الواحد .

وسافر أبلار إلى رومة ليعرض قضيته على البابا وهو لا يكاد يملك شروى نقير ،

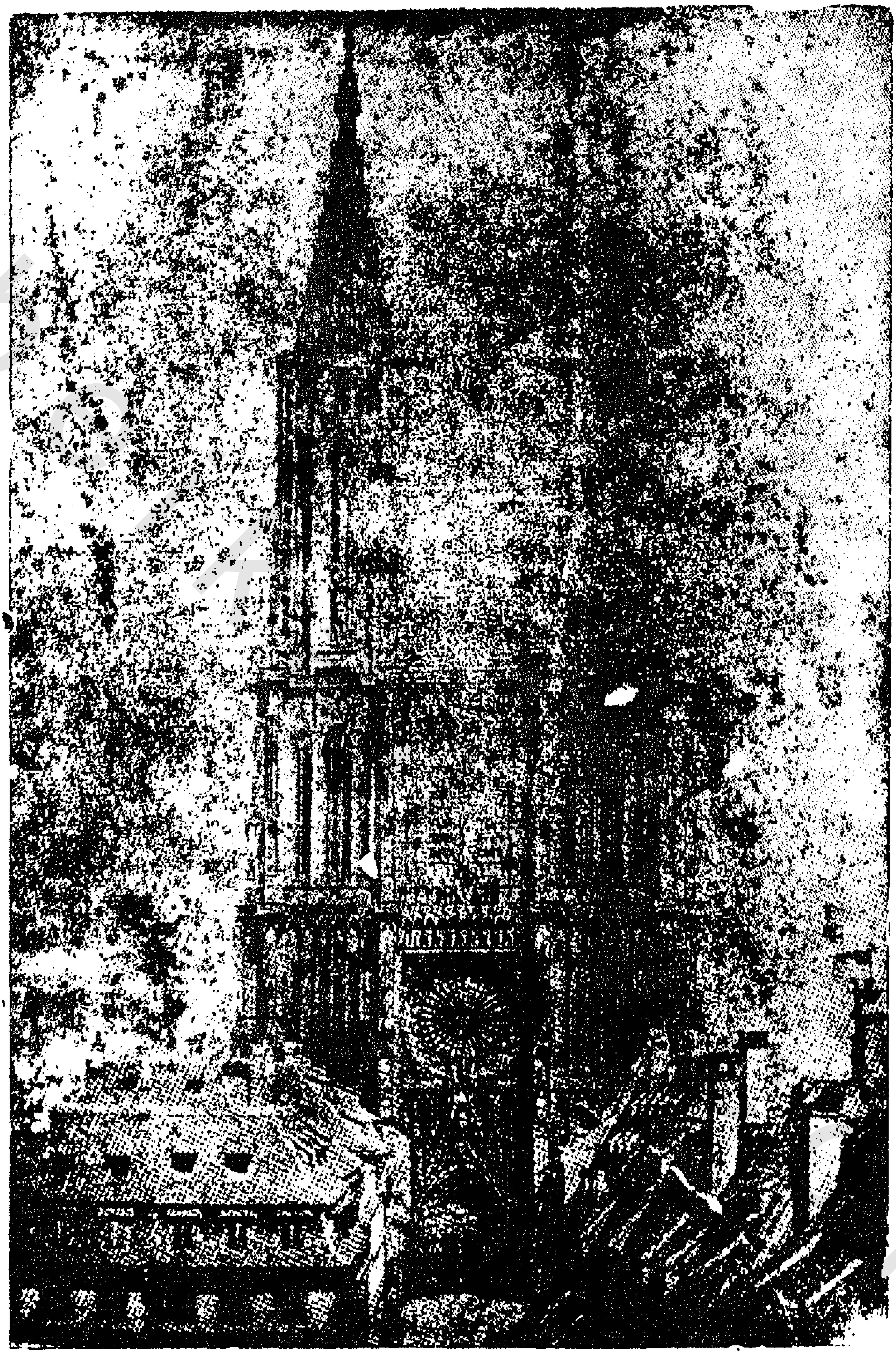

(الصورة رقم ٤) كتدرائية استراسبرج

obeikandl.com

واعترضه فى السفر شيخوخته وضعفه فتأخر كثيراً فى الطريق . ولما وصل إلى دير كلونى فى برغندية استقبله بطرس المبجل بالشفقة والحنان ، فاستراح فى الدير بضعة أيام قليلة . وفى هذه الأثناء أصدر إنوسنت الثانى قراراً بالتصديق على حكم المجلس ، وفرض الصمت الدائم على أبلار ، والأمر بحجزه فى أحد الأديرة . ورغب أبلار بالرغم من صدور هذا القرار أن يواصل حجه ، ولكن بطرس أقنعه بألا يفعل ، وقال له إن البابا لا يمكن أن يصدر قرراً يخالف ما يراه برنار . وخضع أبلار لهذا الرأى لما عاناه من الإعياء الجسمى والروحى ، فصار راهبا فى دير كلونى واختفى فى ظلام أسواره وطقوسه ، وقوى روح زملائه الرهبان بتقواه ، وصمته ، وصلواته . وكتب إلى هلواز — التى لم يرها قط بعد ذلك الوقت — يعترف اعترافا مؤثراً بإيمانه بتعاليم المسيح ، وألف لها فى أغلب الظن ترانيم من أجمل ما يحتويه أدب العصور الوسطى . وتعزى إليه « مرثية » فى صورة رثاء من داود إلى يوناثان ، ولكن فى وسع أى قاوئ أن يلمح فيها أنيناً رقيقاً :

لو قُدّر لى أن أرقد معك فى قبر واحد
لرأيت السعادة فى أن أموت ،
فلست أعرف من النعم التى يمكن أن يهبها الحب فى هذه الدنيا ما هو
أعظم من هذه النعمة .
ولو أننى عشت بعد أن تموتين ويبرد جسمك
لكان ذلك هو الموت الأبدى ،
ولن يكون فى شبحى نصف روح
يمسك على حياتى أو نصف نفسى .

* * *

obeikandl.com

هأنذا ، ألقى قيثارتى ،
ألا ليتنى أستطيع
أن أمسك كذلك دموعى وأنينى !
لقد آلم العزف يدى
وبحّ صوتى
من فرط الحزن ، وحل بروحى الإعياء .

وأصابه المرض بعد هذا الوقت بقليل ، وأرسله رئيس الدير الرحيم إلى دير القديس مارسل St. Marcel بالقرب من شالون ليبدل فيه الهواء ؛ وهناك وفى اليوم الحادى والعشرين من إبريل عام ١١٤٢ وافته المنية وهو فى السادسة والثلاثين من عمره . ودفن فى كنيسة الدير ؛ ولكن هلواز ذكّرت بطرس المبجل بأن أبلار قد طلب فى حياته أن يدفن فى « الروح القدس » . وجاء إليها الرئيس الرحيم نفسه بالجثة ، وحاول أن يواسيها بالتحدث عن حبيبها الميت بأنه سقراط زمانه وأفلاطونه وأرسطوطاليسه ؛ وترك معها رسالة تفيض بالحنان المسيحى :

وهكذا يا أختى العزيزة المعظمة فى الله ، إن الرجل الذى اجتمعت وإياه ، بعد رابطتكما الجسمية ، برابطة خير منها وأقوى هى رابطة الحب المقدس ، والذى خدمت ... الله معه ، هذا الرجل يأخذه الله بدلا منك ، فهو صورة أخرى منك ، وينفث فيه دفء صدره ؛ ويحتفظ به حين يُدوى صوت الملاك الأكبر ، وينفخ فى الصور من السموات العلى ، ليرده إليه نعمة منه ورحمة(٤٨) .

ولحقت بحبيبها فى عام ١١٦٤ بعد أن بلغت من السن ما بلغه هو ، وكادت تنال من الشهرة مثل ما ناله . ودفنت بجـواره فى حديقة « الروح القدس » .

«ودمرت هذه» الحديقة فى أثناء الثورة الفرنسية ، وعبثت الأيدى بالقبور، ولعلها اختلط بعضها ببعض . ثم نقل ما يظن أنه رفات أبلار وهلواز إلى مقبرة الأب «لاشيز» Père Lachaise بباريس عام ١٨١٧ . وهناك ترى الرجال والنساء إلى يومنا هذا يأتون فى أيام الآحاد من فصل الصيف يحملون الأزهار ليزينوا بها القبر(*) .

(*) لقد أوردنا قصة أبلار وهلواز ورسائلهما فى كتابنا « آشهر الرسائل العالمية » فليقرأها من أراد الاطلاع على هذه السيرة العجيبة . (المترجم)

obeikandl.com